مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 28 عدد:1 (رت 75) السنة: 2024

التعليم ومؤسساته في الجزائر العثمانية 1700-1830م

Education and its institutions in Algeria during the Ottoman era 1700-1830

بلقاسم قرياش[1]
جامعة أم البواقي
Kerbechb@gmail.com

تاريخ الوصول 2023/04/21 القبول 2023/08/06 النشر على الخط 2024/01/15
Received 21/04/2023 Accepted 06/08/2023 Published online 15/01/2024

ملخص:

كان التعليم ومؤسساته في الجزائر خلال العهد العثماني يتميز بالبساطة، حيث لم يكن هناك نظام تعليمي مركزي موحد وممنهج ولا مدارس حكومية أو خاصة كبيرة، فكان يقتصر على بعض الكتاتيب والمدارس التي يديرها بعض الأئمة والمعلّمين، ورغم ذلك إلاّ أن القراءة والكتابة قد انتشرت بشكل واسع في الأوساط الجزائرية، فانعدمت الأميّة بشكل يدعو للاعجاب حتى أن بعض الرحالة الأوربيين قد أشاروا إلى أن نسبة الأمية في الجزائر أقلّ بكثير من تلك الموجودة في أوربا.

كما ظهرت بعض المؤسسات التعليمة الكبرى التي كانت بمثابة الجامعات، مثل: المسجد الكبير والجديد في الجزائر العاصمة واللذان كان محتوى خطبهما ودروسهما يعادل ما يلقى في مساجد الشام وتونس ومصر.

الكلمات المفتاحية: التعليم، المؤسسات التعليمية، الجزائر، العهد العثماني، المساجد والزوايا.

Abstract:

Education and its institutions in Algeria during the Ottoman era were characterized by simplicity. There was no centralized and organized education system, and there were no large government or private schools. Education was limited to some small schools and run by some religious teachers and imams. However, despite this, reading and writing spread widely in Algerian society, and illiteracy was impressively low, to the extent that some European travelers noted that the illiteracy rate in Algeria was much lower than that in Europe.

Some large educational institutions emerged and served as universities, such as the Great Mosque and the New Mosque in Algiers, whose sermons and lessons were equivalent to those given in mosques in Syria, Tunisia, and Egypt.

Keywords: *Education, Institutions, Algeria, Ottoman Era, Mosque.*

[1] – المؤلّف المراسل: بلقاسم قرباش البريد الإلكتروني: **kerbechb@gmail.com**

1.مقدمة:

كان التعليم خلال العهد العثماني يعتمد بشكل كبير على تدريس العلوم الشرعية وبعض العلوم التجريبية الأخرى، معتمدا في ذلك على مؤسسات مثل: الكتّاب والمسجد والزاوية، فيتلقى فيها الطلبة القراءة والكاتبة وعلم الحساب واللغة العربية وتحفيظ القرآن.

وفي المقابل برز العلماء كفئة موازية للسلطات الحاكمة سدّت الفراغ الحاصل، حيث لعب العديد منهم أدوارا بارزة في مجالات متعددة مثل التعليم والقضاء وحلّ الخلافات بين القبائل وغيرها من القضايا التي أوكلت لهم من قبل السلطة الزمنية، فأصبحوا الفئة التي تربط المجتمع الجزائري المحلي بالسلطة التركية في الجزائر؛ حتى أنّ "هؤلاء العلماء كان لهم الدور البارز في إنهاء العديد من الثورات، والتدخل لصالح القبائل من أجل الحصول على العفو من الأتراك".

وتهدف الدراسة التالية إلى إماطة اللثام عن التعليم ووضعيته خلال الفترة الأخيرة من التواجد العثماني في الجزائر التي تمتدّ بين سنتي 1700-1830م، ودراسة أنماط التدريس والتعليم المتبعة آنذاك، بالإضافة إلى تأثير التعليم والمؤسسات التعليمية على المجتمع الجزائري، وكذا المشاكل والتحديات التي واجهت النظام التعليمي بما في ذلك قلّة الموارد المالية والتكوين والمناهج، والاشارة إلى أبرز العلماء الجزائريين الذين قادوا الحياة الثقافية والعلمية وأنتجوا المعرفة.

تدرس المقالة التالية الحياة العلمية ومؤسساتها في الجزائر أواخر العهد العثماني، فجاءت الإشكالية الرئيسية كالآتي: ما طبيعة التعليم في الجزائر العثمانية في الفترة الممتدة بين سنتي 1700-1830م؟

وانبثقت عن الإشكالية الرئيسية مجموعة إشكاليات فرعية، نذكر منها:

كيف كانت وضعية التعليم ومؤسساته في الجزائر أواخر العهد العثماني؟

ما العلوم الرائجة في الجزائر العثمانية؟

ما هي المؤسسات التعليمية البارزة في الجزائر خلال الفترة العثمانية؟

2.التعليم:

قسّم المؤرخون التعليم خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أطوار جاءت كالآتي:

1.2 . التعليم الابتدائي:

لقد كان التعليم الابتدائي متوفرا لأغلب الجزائريين فلا تكاد تخلو قرية من وجود مدرسة قرآنية أو كتّاب تابع للمسجد، كما انتشرت الكتاتيب والمدارس القرآنية بشكل واسع في جميع ربوع الوطن، "حتى كان لا يخلو منها حيّ من الأحياء في المدن ولا قرية في الريف، بل إنّها انتشرت حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وانعدام الأميّة بين سكانها"، وتذكر بعض المصادر "أنّ الجزائر العاصمة قد ضمّت لوحدها مائتين وتسعة وعشرين مدرسة بها

خمسة آلاف وخمسمائة تلميذ"[1]، وجاء على لسان الجنرال ولسن وسترهازي "أن الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا في ذلك العهد أكثر من الفرنسيين الذين يقرؤون ويكتبون، فخمسة وأربعون بالمائة من الفرنسيين قد عاشوا خلال ذات الفترة أميين".[2]

ويؤكد توماس شاو أن الطفل الجزائري وبمجرد بلوغه سنّ السادسة يرسل إلى المدرسة، أين يتعلم هناك القراءة والكتابة حيث يكرر ما حفظه مع زملائه بصوت واحد -يقصد حفظ القرآن-، وهم لا يستخدمون أي ورق، حيث يكتب كلّ طفل ما يتعلّمه على لوحة رقيقة، ونفس الأمر يتعلق باليهود الذين يستخدمون هم الآخرون لوحة صغيرة تدعى الزابور[3]، ويذكر الأب دان: "أن الأطفال يستخدمون في الكتابة على هذه اللوحة قصبة صغيرة... في حين يستعمل الأستاذ عند معاقبة الطفل مسطرة خشبية صغيرة يضرب بها الطفل أسفل القدم -الفلقة-".[4]

وقد وُصف الكُتّاب على أنّه "حجرة صغيرة مفروشة بحصر بالية"، يتعلّم فيها الطفل " الكتابة والقراءة وبعض مبادئ الحساب، وعادة ما يتراوح عدد مرتاديها بين الخمسة عشر والعشرون طفلا، يدرسون فيه ما بين الثلاثة والأربعة سنوات، وأما الذي يرغب في مواصلة الدراسة فإنّ عليه البقاء من أجل تعلم وحفظ القرآن كاملا"[5]، وما إن ينهي "الطفل حفظ القرآن حتى يقيم له ذووه حفلة على شرفه، وذلك بحضور شيخ الكتاب الذي يتلقى ما تيّسر من المال والهدايا"[6]، ويقصّ علينا شاو طريقة الاحتفال بالطالب الناجح قائلا: "ما إن ينهي الطفل تعليمه الابتدائي، حتى يتم تقديره تقديرا حافلا، فيتم حمله على ظهر حصان من قبل رفقائه في المدرسة ويسيرون به في الشوارع وهم يصرخون، في الوقت الذي يلتقى أصدقاؤه وأقرباؤه ليهنؤوا والديه بمناسبة نجاح ابنهما ويقدمان للطفل الهدايا"[7]، وهكذا يمكن للطفل الطالب أن ينتقل للمرحلة القادمة.

وأما عن طريقة التعليم "فيجلس الأطفال في دوائر نصفية، حيث يملي عليهم المعلّم أجزاء من القرآن الكريم فيكتبونها على ألواح خشبية مطليّة بطين الصلصال، ويستخدمون في الكتابة أقلاما من القصب وصمغ مصنوع من الصوف المحروق، وما إن ينهي الطفل حفظ القرآن المدوّن على اللوحة حتى يقوم بمحوه وكتابة سور أو آيات جديدة".[8]

---

[1] رشيدة شدري معمر، المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518-1830م، مجلة معارف، ع.20، جوان 2016، ص100.

[2] بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني، مجلّة حوليات التاريخ والجغرافيا، م.01، ع02، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، ديسمبر 2015، ص137.

[3] Shaw Thomas, Travels, Or Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant: Illustrated, London, 1757, p194.

[4] Dan Pierre, Histoire De Barbarie, Et De Ses Corsaires. Des Royavmes, Et Des Villes D'alger, De Tvnis, De Salé, & De Tripoly, Ed.02, Paris, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roy, 1649, p260.

[5] بخوش صبيحة، مرجع سابق، ص137.

[6] دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني – أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة، الجزائر، 1996/1995م، ص .21

[7] Shaw Thomas, op.cit, p194-195.

[8] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص100-101.

ويبدو أن أغلب الأطفال لا يواصلون دراستهم، حيث "يتم توظيفهم لمدّة ثلاث أو أربعة سنوات لتعلّم التجارة أو الالتحاق بالجيش أو أي من المهن المتوفرة في البلد، وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال ممن يحتفظون بما تعلّموه في دراستهم، إذا استثنينا أولئك الذين يكملون الدراسة أو يشتغلون في جباية الضريبة".[1]

2.2 التعليم الثانوي:

ما إن ينهي الطفل تعليمه في الكتاب أو الريف حتى يلتحق بالجامع أو مدرسة ملحقة بالأوقاف ليواصل دراسته بها، حيث يكون التعليم فيها مجانيا، "ويتراوح سن الطلبة في الطور الثانوي بين العشرة والستة عشر سنة".[2]

يتلقى العلم في هذه المرحلة حوالي ثلاثة آلاف طالب في كل إقليم، ليحصل المتعلّم في نهاية المرحلة على إجازة شفوية تسمح له بتولي وظيفة مؤدب أو كاتب،[3] وقد اهتمت هذه المدارس بتعليم العلوم الشرعية وعلم الحديث والفقه والنحو واللغة والتوحيد وعلم الحساب وقراءة بعض الأعمال الطبية، ومن أبرز هذه المدارس مدرسة مازونة ومدرسة القيطنة ومدرسة المحمديّة وغيرها.[4]

3.2 .التعليم العالي:

كان التعليم في هذا المستوى مجانياّ، حيث يعتمد في مداخيله اعتمادا شبه كليّ على الأوقاف أو الحكومة حيث "يتلقى الأستاذ أجره من أموال الوقف أو الدولة"، وقد انتشرت المدارس التي تعنى بالتعليم العالي، مثل المدرسة القشاشية ومدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام، غير أن هذه المدارس لم ترقى إلى مستوى الجامعة رغم أن فونتير دي باردیس قد أشار إلى أنّ "بالجزائر ثلاث جامعات يتم فيها تدريس مذهب مالك ابن أنس"[5]

وكان يدرس في هذا الطور بكلّ إقليم ما بين الـ ستمائة والثمانمائة طالب، يشرف على تدريسهم أستاذا يلقب بـ "العالم"، ورغم أن "الجزائر لم تكن تضمّ جامعة بالمعنى الحرفي توحد المناهج غير أنّ دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي أو قد تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين، لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي".[6]

وقد حفلت هذه المدارس العليا بتدريس مختلف أنواع العلوم، حيث يتلقى الطالب فيها:[7]

– **العلوم الشرعية:** تحفيظ القرآن وتفسيره وشرحه وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول.

– **علوم اللغة والأدب:** منها النحو والبلاغة والصرف والعروض والقوافي وقواعد الانشاء.

– **العلوم الطبيعية والتجريبية:** كالفلك والحساب والصيدلة العشبية وغيرها.

---

[1] Shaw Thomas, op.cit, p195.

[2] بوضرساية بوعزة: الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم 1826- 1848م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر: معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1990-1991، ص86.

[3] صليحة بردي، الممارسة التعليمة في الجزائر أثناء العهد العثماني، دراسة في الواقع والمعطيات، مجلة الذاكرة، ع. 11، جوان 2018، ص133.

[4] دباب زهرية، وردة برويس، السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيو تاريخية، م.21، ع.01، 2021، ص178-179.

[5] VENTURE DE Paradise, Alger au 18eme siècle, Fagnan, Alger, 1898 , p185.

[6] سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1998م)، ص273.

[7] يحي بوعزيز: المؤسسات الدينية بالجزائر خالل القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة اللغة العربية، ع.16، ص99.

والحق أن العلوم الطبيعية والتجريبية لم تكن سوى علوما نظرية ترتكز على قراءة أعمال ومؤلفات السابقين دون ابداع أو إعادة استخدام لها في الحياة اليومية، وفي هذا الخصوص ينتقد توماس شاو سوء اهتمام الجزائريين بالرياضيات والطب، قائلا: "لقد التقيت في الجزائر كبير الفلكيين المكلّف بضبط مواعيد الصلوات، حيث لاحظت أنه لا يعرف الكثير عن الفلك والملاحة، كما أنني لم ألتقي الكثير من الأطباء... غير أنّني عندما التقيت طبيب الداي سألني قائلا: هل يعرف المسيحيون "بوقراط"، بما معناه أبو قراط -يقصد أبقراط-، حيث يعتقد مثل باقي الجزائريين أنه أول طبيب عربي عاش قبل ابن سينا".[1]

إنّ هذا النوع من التعليم قد خلق في النهاية نموذجا تلقينيا انحصر في اللغة العربية والفقه والحديث وأصول الدين وغيره من التعليم النظري الذي كان يحتاجه العامة، في الوقت الذي لم "يكن هناك الكثير من العلماء في مجال الهندسة والرياضيات والمنطق والطب ... إلخ"، فقد استمر علماء العهد العثماني في استخدام كتب الرياضي الأندلسي القلصادي الذي توفي سنة 1487م، في حين "آمن العامة إيمانا راسخا أن جميع الأمراض قد تحتاج إلى عقار واحد"[2]، فانتشر الاعتماد على السحر والشعوذة والغيبيات بشكل واسع في أوساط الناس، وفي خضم كل هذه العتمة والسوداوية برز عالم متميز هو ابن حمادوش الذي اختصّ وتميّز في طبّ الأعشاب، حتى أنّ السكان قد استمروا في استخدام خلطاته العشبية حتى خلال الاستعمار الفرنسي، وكل هذه الأوضاع جعلت من "الدايات وحاشيتهم وأعيان وأغنياء الجزائر يقبلون على الأطباء الأوربيين ويثقون فيهم دون غيرهم".[3]

3. العلوم المتداولة في الجزائر العثمانية:

1.3 العلوم الشرعية:

كانت العلوم الدينية خلال العهد العثماني هي الغالبة والسائدة في تآليف علماء الجزائر وذلك مردّه إلى طبيعة ومتطلبات المجتمع الجزائري الذي شاع في أوساطه التصوّف والزهد، وهكذا فإنّ المكتبة الجزائرية لم تكن في الغالب تخرج في إنتاجها عن "الأحاديث الدينية والفقه والأصول والعلوم اللغوية"[4].

ورغم انتشار التصوّف بين علماء الجزائر، إلا أنّ ذلك لم يمنع من ظهور بعض العلماء السلفّيين الذين لم يخرجوا عن الكتاب والسنّة خشية "الابتداع"، فبرز في هذه الفئة ابن الفكون وعبد القادر الراشدي القسنطيني (1700-1780م) الذي اختصّ في علم التوحيد والعقيدة، "وهو عالم مجتهد ومعادي للتأويل له آراء تجديدية خارج الفكر الصوفي غير أنه اصطدم بالجمود الفكري الذي ميّز عصره، وله قصيدة ذائع صيتها ينتقد فيها العلوم العقلية حتى أن القارئ لها ليستشف أن شعره فيه من البلاغة والجمالية ما لم يوجد في علماء عصره، فيقول فيها: "[5]

خَبِّرَا عَنِّي المؤَوِّلَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ العُقُولُ
مَا قَضَتْهُ العُقُولُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ بَلِ الدِّينُ مَا حَوَتْهُ النُّقُولُ

[1] Shaw Thomas, op.cit, p195.

[2] هابنسترايت، مصدر سابق.

[3] ينظر: المصدر نفسه.

[4] زهية دباب، مرجع سابق، ص179.

[5] مبارك الميلي، ج.02، مرجع سابق، ص339.

أَتَقُولاَنِ إِنَّ ذَا أَكْثَرُ النَّـا سِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَعُدُولُ
شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ

2.3 الشعر:

لقد تنوع تداول الشعر خلال العهد العثماني بين السياسي والاجتماعي والديني والذاتي وحتى الثقافي، فلم يخلو تأليف من بعض الأبيات الشعرية.

والحق أن الشعر الملحون كان هو الغالب خلال العهد العثماني، حيث برز فيه العديد من الشعراء المتميّزين أمثال لخضر بن خلّوف وقصيدته عن "معركة مزغرام سنة 1558م، وكذا قصيدة الناصري عن فتح وهران سنة 1792م... إلخ".

وهكذا "فإنّ تأليف الشعر العربي الفصيح لم يكن في بيئة تدعمه وتغذّيه وتطوره؛ خاصة مع وجود ولاّة وبايات وحكام لا يتذوّقون الأدب والفكر، ذلك أنّ أغلبهم كانوا على درجة كبيرة من الجهل باللغة العربية، فامتنعوا عن تشجيع الشعراء والشعر سواء ماديا أو حتى معنويا، واهتموا بالصراع على السلطة الزمنية، وهكذا فإن الكثير من الشعراء اعتزلوا الشعر بأعتبار أنه لا يطعم خبزا لأصحابه "وراح أغلبهم يكتب بداعي الهواية فقط، فطغى التقليد وزال التجديد، وأصبح التأليف في الشعر مجرد مضيعة للوقت كجعل البيت يبدأ من اليمين إلى اليسار والعكس صحيح:[1]

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

3.3 علوم اللغة والنحو:

لقد كان التأليف في علوم اللغة محدودا وحكرا على علماء أمثال محمد بدوي الجزائري الذي لخّص كتاب "الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد" لصاحبه أبي حيّان يوسف الأندلسي، وعنونه بـ "الارتضاء في الفرق الضاد والظاء" الذي ألّفه سنة 1715م، كما كتب أبوراس الناصري مؤلّفا أسماه "ضياء القابوس في كتاب القاموس"[2]، وعلى عكس التأليف في علوم اللغة فإنّ التأليف في النحو قد شهد نشاطا لا بأس به حيث برز في هذا الحقل بعض العلماء الجزائريين، كعبد الكريم الفكون الذي "ألّف مجموعة من التآليف في النحو والصرف لعل أبرزها كتابه "شرح شواهد بن يعلي على الأجرومية"، و"فتح الهادي في شرح جمل المجرادي"[3]، وهكذا فقد برز في النحو علماء كثيرون أمثال يحي الشاوي وخليفة بن حسن القماري وأبي القاسم محمد بن محمد البجائي وسعيد قدورة وأبو رأس الناصري وغيرهم الكثير.

وفي المقابل ظهر جيل من العلماء تميّزوا في البلاغة أمثال عبد الرحمن الأخضري صاحب كتاب "الجوهر المكنون في صدق الثلاثة فنون"، وهي قصيدة تلخّص" كتاب التلخيص" لجلال الدين القزيني، وأما فيما يتعلق بعلم العروض فقد قلّت التآليف في هذا الحقل، بشكل جليّإذا استثنينا قلّة من العلماء مثل: السعيد قدّورة صاحب كتاب "المنظومة الخزرجية".[4]

---

[1] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج02، ص243.

[2] دخبية بوشيبة، العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، الحوار المتوسطي، ع.03-04، جامعة سيدي بلعباس، 2012، ص118.

[3] سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م)، ص151.

[4] بوزيان الدراجي، عبد الرحمن الأخضري، العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009م، ص 240.

4.3 علم الكلام والمنطق:

يعرّفه مصطفى الرماسي الذي عاش في القرن الثامن عشر بقوله: "علم الكلام أوثق العلوم وأوضحها دليلا وأشرفها فوائد وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق وصفاته، ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته".[1]

لقدبرز في الجزائر العثمانية عدّة علماء متميّزين في "علم الكلام"، وسادت بينهم عقائد الأشعري، ولعل أشهر هؤلاء العلماء هو العالم الصوفي السنوسي التلمساني صاحب كتاب "شرح أم البراهين"، حيث استخدم مؤلّفه خلال العهد العثماني على نطاق واسع وبلغت شهرته الآفاق.

وعلى عكس الإنتاج العلمي في علم الكلام، فإنّ علماء الجزائر لم ينتجوا الكثير في علم المنطق، إذا استثنينا علماء كالسنوسي وابن القنفذ والمغيلي، "ويرجع نقص التأليف في المنطق إلى صعوبة هذا العلم "فهو يحتاج إلى عالم موسوعي واسع الاطلاع حتى على الأعمال الأجنبية وكذا أعمال السابقين، أما السبب الثاني فمرجعه إلى طغيان التصوّف حيث خشي أغلب العلماء من أن تؤدي بهم دراسة المنطق في النهاية إلى الالحاد".[2]

4. فئة العلماء:

إن فئة العلماء ورغم أنّها لم تلقى الاهتمام اللازم من قبل السلطة العثمانية؛ إلا أنّ نفوذها في الأوساط الشعبية الجزائرية كان بالغا، وتناهى إلى درجة التقديس في بعض الأحيان، "فبعد أن ثار سكان مدينة عنابة سنة 1642م ضد السلطة التركية راسل الباشا يوسف الشيخ محمد الساسي البوني يطلب منه أن يتدخل لأجل وقف الثورة، وفعلا نجح الشيخ بعد تدخله من إخماد الثورة وإقناع المتمرّدين بوضع السلاح"، وفي حادثة أخرى رفض سكّان جبال كوكو بمنطقة بلاد القبائل تسليم الأسيرة الآنسة دي بورك للسلطات التركية وتحدّوا الداي نفسه سنة 1719م، غير أن مراسلة واحدة من العاصمة إلى شيخ المنطقة ومفتي جيجل جعلت السكان المحليين يسلّمون الأسيرة، وتذكر ماريا مارتين تفاصيل إطلاق سراحها قائلة: "ما إن وصل المفتي والشيخ حتى فرّ ملاكي إلى وجهة بعيدة خوفا من المرابطيْن".[3]

ولأننا لا نستطيع ذكر جميع العلماء فإنّنا سنحاول بإيجاز إيراد بعض أولئك الذين تميّزوا خلال الفترة الأخيرة من التواجد العثماني في الجزائر:

1- ابن حمادوش: (**1695-1786م؟**)، طبيب ورحالة، ولد في مدينة الجزائر العاصمة سنة 1695م، وهو أشعري العقيدة ومالكي المذهب، تميّز بموسوعيته حيث أحاط بالعديد من العلوم مثل: الطب والفلك والصيدلة والهندسة والمنطق كما كان له باع في العلوم اللغوية والشرعية والفقة والتفسير والتصوف[4]، ويصفه كولن قائلا: "لقد كان آخر طبيب عظيم برع في الطب العربي".[1] وتأثر ابن حمادوش في

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، ج02، ص93.

[2] المرجع نفسه...، ج02، ص91.

[3] DUNCAN, Archibald, The Mariner's Chronicle: Being a Collection of the Most Interesting Narratives of Shipwrecks, Fires, Famines, and Other Calamities Incident to a Life of Maritime Enterprise, James cundee, 1805.

[4] محمد غربي، وقفة تاريخية مع رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش، م.3، ع02، سبتمبر 2022م، ص330.

تحصيله للطب من علماء عرب سابقين، أمثال: ابن سينا وابن الأنطاكي (؟-ت.1599م)، وعلاء الدين ابن البيطار (1197-1248م) والقلصادي وبعض العلماء اليونانيين كإقليدس وجاليانوس.[2]

اشتهر ابن حمادوش برحلته إلى الحج سنة 1130هـ الموافق لـ 1717-1718م والمغرب سنتي 1732-1743م[3]، "والتي تميّزت بالدقة في الملاحظة والوصف وغزارة الموضوعات، كما رصد ابن حمادوش من خلالها جوانب تاريخية هامة".[4]

2- عبد القادر الراشدي القسنطيني: (**1700-1780م**)، ولد في مدينة قسنطينة سنة 1112هـ الموافق لسنة 1700م، وهاجر إلى تونس وأخذ عن علمائها ثم عاد إلى قسنطينة وتولى الخطابة بجامع سوق الغزل وفيه كان يصلي الباي، كما وليّ قضاء الحنفية مرّات عديدة. توفي القسنطيني سنة 1242هـ الموافق لسنة 1786م.[5]

ترك الراشدي العديد من المؤلفات نذكر منها على سبيل الحصر لا التمثيل ما يلي: - رسالة في التوحيد – رسالة في التعليق على سعد الدين التفتازاني – حاشية على المواقف العضدية... وغيرها من التآليف في العلوم الشرعية.

3- أبو رأس الناصري: اختلف المؤرّخون في تحديد تاريخ مولد أبو رأس الناصري، فذكر أبو القاسم سعد الله أنّ مولده يرجع إلى سنة 1754م في حين أكد سعيدوني أن مولده كان سنة 1737م في نواحي جبل كرسوط بمعسكر، وتلقى تعليمه في مجاجة ثم سافر إلى المغرب الأقصى وأخذ هناك العلم على يد مشايخها، ليستقر في النهاية بمعسكر.[6]

تتلمذ أبو رأس الناصري على يد بن عمّار مفتي الجزائر والشيخ محمد مرتضى الزبيدي ومحمد الأمير وغيرهم، وما إن اشتد عوده وقويّ علمه حتى أسس "بوسط مدينة معسكر مدرسة سمّاها المدرسة المحمدية تلقى فيها المئات من طلبة العلم دروسه"، ولم يتوقف نشاطه على التعليم فقط بل انكفأ الشيخ على التأليف حتى قيل أنهّ ألف ما يزيد عن مائة مؤلّف، ويصفه الحفناوي بقوله: "وله تآليف مفيدة بديعة سارت بها لعزّتها الركبان واشتدت إليها لنفاستها رغبة القاصي والداني...".[7]

فألف في الحديث والفقه والمنطق والنحو والمذاهب والتاريخ والتوحيد والتصوف واللغة ... إلخ، ومن مؤلفاته: -زهرة الشماريخ في علم التاريخ – القول المسلّم في شرح السّلم – الدرّة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة... وغيرها. توفي أبو رأس الناصري سنة 1238 هـ الموافق لسنة 1823م.[8]

---

[1] Gabriel Colin, Abderrezzaq El-Jezâïri: Médecin Arabe du XIIe siècle de l'Hégire, Montpellier, 1905, p39.

[2] Lucien Leclerc, Kachef er-roumouz (Révélation des énigmes) d'Abd Er-Rezzaq Ed-Djezaïry; ou Traité de matière médicale arabe d'Abd er-Rezzaq l'Algérien, Paris, J.B. Bailliére et fils, 1874, p76-78.

[3] Lucien Leclerc, op.cit , p.01.

[4] محمد غربي، مرجع سابق، ص332.

[5] **ينظر**: لزهاري التريكي، المفتي عبد القادر المشرفي القسنطيني: العالم، المجاهد والمفسر، مجلّة الدراسات التاريخية، ع. 22، جامعة الجزائر، 2021.

[6] مجاهدي إبراهيم، الشيخ أبي رأس الناصري المعسكري، مجلّة دراسات في علوم الانسان والمجتمع، م.04، ع.03، جامعة جيجل، سبتمبر 2021م، ص118.

[7] أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج02، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ص333.

[8] المصدر نفسه، ص333.

5. المؤسسات الثقافية:

1.5 الكّتاب:

هو مؤسسة تشبه إلى حد ما المدرسة الابتدائية في عصرنا الحالي، تعنى بتعليم الأطوار الأولى "مبادئ القراء والكتابة وتحفيظ القرآن والحساب، وقد مثّل الكتاب أحد "أقدم المراكز التعليمية في العالم الإسلامي حتى أن بعض المصادر تشير إلى أن العرب قد عرفوا الكتّاب حتى قبل الإسلام ولو أنه كان منتشرا على نطاق محدود... حتى أن أبي القاسم البلخي "كان يمتلك كتّابا يضمّ ثلاثة آلاف تلميذ، ولشدّة اتساعه كان يحتاج إلى أن يركب حمارا ليتردد بين طلاّبه ويشرف على شؤونهم"[1]، وأمّا في الجزائر العثمانية "فقد تراوح عدد مرتاديه بين الخمسة عشر والعشرين طفلا.[2]

لقد أنشئ الكتاب لتجنيب المساجد ضوضاء الأطفال والمتعلّمين، فأطلق عليه لقب "الشريعة في الأرياف و"المسيد" في المدن[3]، وكان الكتّاب في "الغالب عبارة عن حجرة أو دكان أو جناح في مسجد... حتى أنّ بعض الواقفين كان يكتفي بفتح غرفة في منزله على الشارع ويجعلها كتّابا للأطفال، كما ضمّت زوايا المرابطين أجنحة خاصة لتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن".[4]

وتولى "بناء الكتاتيب والاشراف عليها أفراد من جميع طبقات المجتمع، كالباشاوات والبايات والموظفون السامون وحتى العامة"[5]، ومن أشهر هذه الكتاتيب التي كانت منتشرة في حيّ القصبة وحده:[6]

1- مسيد برقيصة.
2- مسيد سيدي بوقدور وضريحه.
3- مسيد سيدي ابن علي وفريحه.
4- مسيد الحمامات.
5- مسيد حوانيت سيدي عبد الله.
6- مسيد الدالية.
7- مسيد جامع الزاوية –تنسب إلى محمد الشريف الزهار–
8- مسيد جامع سفير.

---

[1] السّباعي مصطفى، من روائع حضارتنا، (بيروت: دار الورّاق، 1999م)، ص206.
[2] بخوش صليحة، مرجع سابق، ص137.
[3] نفس المرجع والصفحة.
[4] بردي صليحة، مرجع سابق، ص130.
[5] نفس المرجع والصفحة.
[6] يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص101.

2.5. المساجد: لقد انتشرت بشكل واسع في الجزائر باعتبارها مكانا مقدّسا تقام فيه الصلوات، فجمعت بين العبادة والتعليم، ولعبت أدوارا متقدمة في حياة الفرد الجزائري، فأصبحت مركزا للإشعاع الحضاري تقام فيه الدروس حتى أن بعض المساجد كانت بمثابة الجامعة، تولّت نشر اللغة العربية والمعرفة الإسلامية خاصة مع وجود حكام وأقليّة تركية لا تفقه ولا تتحدث هذه اللغة.

أخذت المساجد عدّة تسميات، منها من نسب إلى "الحرفيين مثل مسجد الشماعين والخيّاطين والحلفاويين والكبابطة... وأخرى نسبت أسماؤها إلى الأفراد مثل مسجد علي بتشنين وعبد الله صفر وسيدي عبد الله وسيدي محمد الشريف، في حين تسمّت أخرى بالموقع الذي بنيت عليه مثل مسجد البراني ومسجد كتشاوة وغيرهم[1]، ويؤكد فونتير دي بارادي أن "أكبر هذه المساجد الموجودة في الجزائر العاصمة هو "الجامع الكبير"، الذي يتبع للمالكيين حيث يشتغل فيه مفتيان وقاضيان، يلتقي كلّهم يوم الخميس من أجل البتّ في قضايا العامة التي لا تستطيع المحكمة إصدار أحكام فيها، بالإضافة إلى تقسيم المواريث... وأما يوم الثلاثاء فهو يوم عطلة يقضيه القضاة والمفتين في منازلهم الريفية".[2]

وقد بلغت المساجد من القداسة ما جعلها مركزا "يفرّ إليه حتى المجرمون أو أولئك الملاحقون من قبل العدالة الجزائرية، فلا ينالهم أي عقاب ما داموا داخله، خاصّة إذا كان المسجد تابعا لأحد الأولياء الصالحين، كما يمكن للأسير المسيحي أن ينجو من العقاب إذ هو فرّ إلى أحدها قبل أن يقبض عليه على أن يوثق قدمه بسلسلة نهايتها عبارة عن كرة حديديّة، أما في حال قبض على أحد اليهود داخلها فإنّه يحرق أو يصلب حيّا"[3]، غير أن الكثير من الرحالة والكتاب الأوربيّين قد أكّدوا أنّ أهل الذمّة لم يكن يسمح لهم بدخول المساجد، سواء كانوا مسيحا أو يهودا، ويذكر في هذا الصدد بلايفر " أن قسيسا دخل إلى أحد مساجد العاصمة وهاجم الديانة المحمدية؛ فقامت السلطات بالإمساك به وأحراقه حيّا"[4]، ويذهب فونتير دو بارادي إلى أن "اليهودي أو المسيحي الذي يقع في مشكل مع المسلم؛ يحاكم في فناء مجاور للجامع ذلك أنه لا يسمح لهم بالولوج إلى المسجد"[5]

بنيت المساجد الجزائرية بطريقة جيّدة وفخمة جعلها تعادل في جماليتها وضخامتها المباني الرئيسية الموجودة في المدن الجزائرية الكبرى حيث يمكن لعمرانها أن يوازي قصر الداي والمستشفى الخاص بالأسرى، ويؤكد جون فوس: "أن مساجد مدينة الجزائر مبنية بشكل رائع".[6] وأما عن عددها فقد اختلفت المصادر في إحصائها، حيث يذكر فونتير دي بارادي الذي زار الجزائر بين سنتي 1788-1790م "أن الجزائر العاصمة بها اثنا عشر جامعا كبيرا والعديد من المساجد الصغيرة"[7]، أما جون فوس الذي كان أسيرا بالجزائر العاصمة خلال الفترة الممتدة بين

[1] مصطفى ابن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص127.

[2] Paradis Venture De, op.cit, p157.

[3] Foss, John, A journal, of the captivity and sufferings of John Foss; several years a prisoner at Algiers: together with some account ... , 1800, p34.

[4] Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p.90.

[5] Paradis Venture De, op.cit, p157.

[6] John Foss, op.cit, p43.

[7] Paradis Venture De, op.cit, p157.

بين سنتي 1793-1795م، فيذكر "أن عددها قد بلغ خمسة وستين مسجدا"[1]، في حين يذهب دوفو "إلى أن عدد المساجد في الجزائر العاصمة سنة 1830م قد بلغ إثنا عشر مسجدا كبيرا ومائة وتسعة مساجد صغيرة، وتناقص عددها سنة 1862م ليصبح تسعة مساجد كبرى وتسعة عشر مسجدا صغيرا".[2]

وأما فيما يخصّ التنظيم العام لهذه المساجد، فإن من عادات الجزائريين "رفع العلم الأبيض وقت صلاة الظهر، ثم العلم الأخضر إيذانا بدخول وقت صلاة العصر، ويسمّونه بانتيرا نيفا أي ساعة نشر علم السفينة، وفي المساء فانتير أباسا أي ساعة طيّ العلم".[3]

3.5. الزوايا:

إنّ "أوّل من بنى الزاويا هم الصوفية والمرابطون، يبتغون بها الابتعاد عن صخب وضجيج المدينة، وأملا في الهدوء الذي يساعد على التأمل والعبادة"[4]، وقد ظهرت الزوايا في المغرب العربي منذ القرن 13م، لتحلّ محلّ الرباط بشكل تدريجيّ ثم أصبحت خلال العهد العثماني مؤسسات بيد الصوفية والمرابطين.[5]

والحقيقة أن الزاوية كانت أقدس حتى من المسجد؛ خاصة بالنسبة لأتباع الطائفة الصوفية، ولما كان العثمانيون قد أسّسوا إمبراطوريتهم على الطريقة الشاذلية الصوفية؛ فإنّهم عاملوا الطرق الصوفية وزواياهم بعين الاحترام والريبة في نفس الوقت، "فجعلوا الزاوية مكانا مقدّسا هو آمن من دخلها"، ويذكر جون فوس بقوله: "يفّر المجرم الجزائري إلى مسجد المرابط –الزاوية–، حيث يلتقي هناك المفتي فيعلمه عن وضعيته القانونية، ليقوم الأخير بإعلام الداي عن وجود مجرم في زاويته، فيرسل الداي بدوره مسبحة إلى المفتي كرمزية للعفو وهكذا يطلق سراح المجرم، وعلى الرغم من أن الأخير يمكنه أن يخرج من المسجد طوعا؛ إلا أنّ إقدامه على فعل ذلك دون وصول المسبحة يعني أنه معرّض للعقوبة".[6]

وقد قسّمت الزوايا في الجزائر إلى نوعين: زوايا حرّة لا تنسب إلى وليّ أو طريقة معيّنة، كزاوية عبد الرحمن اليلولي، وأمّا النوع الثاني فيخضع في تسيير شؤونه إلى الشيخ المؤسس[7]، ومن أشهر زاويا هذا النوع: "الزاوية القادرية في الأوراس، وزاوية القيطنة في معسكر التي تأسست سنة 1785م على يد جدّ الأمير عبد القادر.[8]

قدّمت لنا الإحصاءات انتشار عدد هائل من الزوايا في جميع ربوع الجزائر خلال العهد العثماني، فأحصى دوفو "إثنا عشر زاوية وإثنان وثلاثون ضريحا سنة 1830م، غير أن هذا الرقم قد تناقص بشكل جليّ سنة 1862م فأصبح عددها خمسة زوايا وخمسة عشر ضريحا"[9]،

---

[1]Foss John, op.cit, p45.

[2]DevoulxA, Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870, p3.

[3]هابنسترايت، مصدر سابق، ص38.

[4]العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، (الجزائر: دار البصائر، 2001م)، ص203.

[5] معمر شردي رشيدة، مرجع سابق، ص96.

[6]Foss John, op.cit, p47.

[7]شردي رشيدة معمر، الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلّة المعيار، م.24، ع49، جامعة قسنطينة، 2020م، ص275.

[8] صلاح مؤيد العقبي، مرجع سابق، ص-ص147-148.

[9]Devoulx, op.cit, p03.

في الوقت الذي وجد في مدينة قسنطينة ستة عشر زاوية، وثلاثون زاوية في تلمسان وخمسون في بلاد القبائل، كما عمّت الزوايا الصحراء وكان أبرزها زواية عين ماضي وزاوية قرومة وزاوية طولقة إلخ[1].

6. خاتمة

لقد خلصنا في نهاية هذا المقال إلى مجموعة استنتاجات جاءت كالآتي:

– لما كانت الأقلية الحاكمة في غالبها أعجمية اللسان، فإنّها فسحت المجال للعلماء والفقهاء والقضاة من أهل الجزائر ليكونوا وسطاء بين السلطة والعامة.

– قام نظام التعليم خلال العهد العثماني على الوقف ما أدّى إلى غياب سياسة تعليمة تابعة للدولة وقائمة على مناهج ومقررات دراسية حقيقية.

– لقد فشل التعليم في النهوض بالجزائر العثمانية، حيث استمر الجزائريون في استخدام سفن بدائية كانت تستعمل في أوربا بالصيد البحري، وذلك على عكس ما كان يحدث في أوربا حيث أنتج العلم ظهور الثورة الصناعية التي غيّرت المجتمعات الأوربية والعالمية، وصنعت الهيمنة الغبية على العالم.

7. قائمة المراجع:

– التريكي لزهاري، المفتي عبد القادر المشرفي القسنطيني: العالم، المجاهد والمفسر، مجلّة الدراسات التاريخية، ع. 22، جامعة الجزائر، 2021.

– السّباعي مصطفى، من روائع حضارتنا، (بيروت: دار الورّاق، 1999م).

– العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، (الجزائر: دار البصائر، 2001م).

– بخوش صبيحة، وضعية التعليم في الجزائر في العهد العثماني، مجلّة حوليات التاريخ والجغرافيا، م.01، ع02، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، ديسمبر 2015م.

– بردي صليحة، الممارسة التعليمة في الجزائر أثناء العهد العثماني، دراسة في الواقع والمعطيات، مجلة الذاكرة، ع. 11، جوان 2018م.

– بوزيان الدراجي، عبد الرحمن الأخضري، العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، (الجزائر: وزارة الثقافة،، 2009م).

– بوضرساية بوعزة: الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم 1826- 1848م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر: معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1990-1991م.

– بوعزيز يحي، المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة اللغة العربية، ع.16.

[1] شردي رشيدة معمر، الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر...، مرجع سابق، ص276-277.

– حمدوش مصطفى ابن، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني، (الجزائر: دار الأمة، 2007م).
– دباب زهرية، وردة برويس، السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيو تاريخية، م.21، ع.01، 2021م.
– دخيبةبوشيبة، العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، الحوار المتوسطي، ع.03–04، جامعة سيدي بلعباس، 2012م.
– دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني – أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة، الجزائر، 1996/1995م.
– سعد االله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م).
– سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1998م).
– شدري رشيدة معمر، المراكز التعليمية في الجزائر العثمانية 1518–1830م، مجلة معارف، ع.20، جوان 2016.
– شردي رشيدة معمر، الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلّة المعيار، م.24، ع49، جامعة قسنطينة، 2020م.
– غربي محمد، وقفة تاريخية مع رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش، م.3، ع02، سبتمبر 2022م،.
– مجاهدي إبراهيم، الشيخ أبي رأس الناصري المعسكري، مجلّة دراسات في علوم الانسان والمجتمع، م.04، ع.03، جامعة جيجل، سبتمبر 2021م.
–حفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج02، (مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م).
- Colin Gabriel, Abderrezzaq El-Jezâïri: Médecin Arabe du XIIe siècle de l'Hégire, Montpellier, 1905.
- Dan Pierre, Histoire De Barbarie, Et De Ses Corsaires. Des Royavmes, Et Des Villes D'alger, De Tvnis, De Salé, & De Tripoly, Ed.02, Paris, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roy, 1649.
- DevoulxA, Les edifices religieux de l’ancien Alger, Bastide, Alger, 1870, p3.
- DUNCAN Archibald, The Mariner's Chronicle: Being a Collection of the Most Interesting Narratives of Shipwrecks, Fires, Famines, and Other Calamities Incident to a Life of Maritime Enterprise, James cundee, 1805.
- Foss John, A journal, of the captivity and sufferings of John Foss;severalyears a prisoner at Algiers: togetherwithsomeaccount ... , 1800, p34.
- Leclerc Lucien, Kachef er-roumouz (Révélation des énigmes) d'Abd Er-Rezzaq Ed-Djezaïry; ou Traité de matière médicale arabe d'Abd er-Rezzaq l'Algérien, Paris, J.B. Bailliére et fils, 1874.
- Playfair Robert Lambert. Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887.
- Shaw Thomas, Travels, Or Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant:Illustrated, London, 1757.
- VENTURE DE Paradise, Alger au 18eme siècle, Fagnan, Alger, 1898.